المحاضرة السابعة

اللاوعي والأدب :

1. مقدمة:

لقد حققت نظرية التحليل النفسي لفرويد ثورة علمية عالمية تخص فهم عالم النفس البشرية ،والتي تتجلى خواطرها في الأحلام وزلات اللسان والإبداعات الأدبية والفنية ، ويقرّ فرويد بانجازاته، حيث يقول في هذا الصدد "إن الإنسان تعرّض لجرحين نرجسيين (أي المسّ بصورة الذات) في تاريخه المعروف . تمثّل أولها بثورة كوبرنيك الذي أثبت أن الأرض وإنسانها ليسا مركز الكون. وتمثل ثانيهما في نظرية التطور لدى داروين الذي أثبت أن الإنسان لا يعدو كونه أحد فروع المملكة الحيوانية .وأحدث التحليل النفسي الجرح الثالث على يد فرويد، حين أثبت أن الإنسان ليس سيد أفعاله،أي أن الدافع اللاواعية لها الدور الأكبر في تحديد هذه الأفعال ،وهي تتمظهر من خلال العقلنة والتبرير"، ففرويد يشير أنّ منطقة اللاوعي هي المصدر الرئيسي التي تختزن فيها الانفعالات و الأحاسيس وهي أحد الأنظمة الرئيسية التي تتكئ عليها نظرية التحليل النفسي عنده . ويمكن أن نطرح السؤال الآتي: ما مفهوم اللاوعي في فكر لاكان؟

2. اللاوعي والنص عند جان لاكان:

لقد كان جاك لاكان أكبر المدافعين عن نظرية التحليل النفسي لفرويد، والتي تشكل الحجر الأساس لنظريته اللغوية النفسية ، وقد رفع شعار "العودة إلى فرويد" وهذا لا يعني استعادة خبراته السابقة واستنتاجاته الأولية ،وإنما الاحتكام إلى خبرة فرويد ،واستقراء ما بين السطور التي خطها خاصة إلى نظرته إلى اللاوعي رغم أن فرويد "حاول جاهدا في كتابه (تفسير الأحلام) ،من أول كتاب إلى آخره ،البرهان على أن اللاوعي (اللاشعور) لغة. فالحلم نص يقرأ "، يظهر فيها أنّ عمل الحلم ؛أي الميكانيزمات أو الحيل اللاشعورية التي تتحول بها أفكار الحالم المعقولة إلى صور حلمية غير معقولة أحيانا كثيرة ،ففي النوم تضعف الرقابة ولكنها لا ترفع نهائيا ،والترميز التي تلجأ إليه الرغبات في الأحلام وهو إحدى الوسائل التي تستعين بها للتخفي والتمويه"، وهذا ما استنتجه لاكان من نظريته النفسية أن اللاوعي هو بمثابة لغة وهي " في حد ذاتها ظاهرة بنيوية ،وأن اللاوعي (اللاشعور) الذي يتحكم برغباتنا هو من هذه البنية نفسها ولا وجود للإنسان من دون اللغة" ، فلا كان لم يكن مخطئ عندما كانت دعوته العودة إلى فرويد ، وأن هذا الأخير هو من تنبه إلى أن اللاوعي هي لغة تحمل من المعاني والدلالات والرموز والاستعارة والكناية والمجاز. وأنّ هذه الأفكار والتخيلات "التي يخيّل للمرء عند قراءتها بأنها صعبة وعسيرة الفهم ،لا بد أن تصبح بعد سنوات بمثابة البديهيات المتداولة ،يتناقلها الناس فيما بينهم ،متعدية في ذلك أصحاب الاختصاص".

إنّ فكرة اللاوعي التي انطلق منها لاكان في بناء منهجه الجديد هي نفسها اللاشعور عند فرويد ، ولكن لاكان ينظر إلى اللاوعي "كلغة قائمة بحد ذاتها التي نتاولها ،ترضخ لقواعد محددة نتحكم باستعمالها وتمثل البنية التي تقوم عليها أي لغة من اللغات :سواء في تصريف الأفعال ، أو المضادات والمرادفات،أو في البلاغة :من الكناية ،إلى الاستعارة ،إلى المجاز ومجاز مرسل ،فاستعمال اللغة يرضخ لمثل هذه القوانين اللغوية ،لأن المعاني تتدفق ضمن قنوات محددة خاصة ومميزة للذات".

لقد أسس لاكان نظريته على معطيات العالم اللغوي "دي سوسير" وتحديدا اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول باعتماده على أنّ اللغة هي نظام من الاختلافات وهو بذلك يخلص إلى تحطيم العلاقة اللغوية التقليدية القائمة بأن العلامة دال/مدلول ،إذ ما يحدث هو عملية تزحلق مستمر للمدلول تحت الدال.

لقد منح لاكان اللغة أهمية كبرى في التعبير عن المسكوت عنه ، أو المقموع في الذات بعد أن قدم تحليلا ماديا عن 'الذات القارئة) عبر أسلوب التحليل النفسي (البوح الذاتي) ، أو الهذيان ،وبهذا التوجه منحت اللغة قراءات متعددة للذات كونها نصا مفتوحا متعدد المعاني، من حيث لا نهاية دلالتها. يقول لاكان في هذا الشأن "العلم يبحث في اللاشعور هو

بالتأكيد علم اللسانيات ،فلاوعي يتكوّن كلغة ويتجلى في مظهرها". كما يرى أيضا أن كلام المريض يشكل الوسيلة الوحيدة لعلاجه في مجال التحليل النفسي، وهو كلمة السر من أجل سبر أغواره. أما بالنسبة اللاوعي عنده فهي بمثابة لغة تقوم على الكناية والمجاز.

أما بالنسبة للكناية فتتمثل في لغة الوعي بالتكثيف، حيث يدل عارض مرضي معين أو عنصر من عناصر الحلم الذي يحيل عدة دلالات يكشفها التحليل، ويعبر عن مصطلح التكثيف أيضا بالتفاوت الموجود بين الشكل والمحتوى في الحلم ،إذ يبدو شكل الحلم وكأنه يضيق بغزارة المعاني التي يحتوي عليها ، وهذا إنما يدل على أن المشاهد والرموز التي تنتقي بطريقة لا إرادية لتشكل عناصر الحلم تعمل على تكثيف التجربة الواقعية بجوانبها النفسية والخارجية وإدراجها في نسق لإخراج جديد يفتح بعض الآفاق المجاوزة للتجربة نفسها إما من باب التخويف أو التحبيب أو النصيحة".

-المجاز: يتمثل في لغة اللاوعي بالإزاحة ،حيث يزاح الانفعال النفسي والرغبة التي تغذيه من التصور أو الموضوع الأصلي إلى تصورات ثانوية غير لافتة ،أو خالية من المعنى، ويضاف إلى هذين العنصرين من لغة اللاوعي كل من الرمزية وقابلية التصوير(التمثيل في صور بصرية شكلية أو حركية).ويستخلص من هذا أن لاكان ينطلق من واقع والذي يرى فيه أنة وسائل التحليل النفسي هي نفسها وسائل الكلام ،وأن اللاوعي مبني كبنية اللغة ،وأن عمليتي الإزاحة والتكثيف هي من صور البيان ، والإزاحة تقوم على إبدال عنصر بعنصر آخر قريب منه ،أما التكثيف فنجد أنه تجمع في عنصر واحد دلالات مختلفة ومتعددة.

3. اللاوعي والأدب عند خلف الله: يرى خلف الله أنّ الأدب لا يصدر عن قصد واع فقط ، بل قد يتشكل من دوافع نفسية كامنة ومن لرغبات وخبرات مكبوتة ، لذا ينظر إلى النص الأدبي بوصفه يحمل آثار اللاوعي ،مثل ما يحمل من الثقافة واللغة والتاريخ ،وقد ألف كتابا سمّاه "من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده" ،ويروج من خلاله خصائص الأدب بعلم النفس، ويمكن أن نلخص معالم دعوته في العناصر الأتية:

-إنّ دراسة الأدب في ضوء علم النفس ،لا تحتاج إلى تسويغ ؛مادام العمل الأدبي من إنتاج الانسان .وهذا العمل هو المعْبر الذي يوصلنا إلى نفس هذا الانسان وما تنطوي عليه من إحساسات ومشاعر".

ـــ إن المنهج النفسي في دراسة الأدب ونقده ، تتطلبه المرحلة الراهنة من تطور العلوم الإنسانية ،وميل الفكر المعاصر إلى الفهم والمعرفة أكثر من ميله إلى مجرد الذوق والاستحسان".

ـــ إنّ وظيفة النقد الجوهري لا تقوم إلا على أساس من فلسفة ذوقية نفسية شاملة ،تنير السبيل أمام الناقد ،وتفتح له منافذ التأثير الأدبي في النفوس". بمعنى أن محمد خلف الله يتجاوز بذلك حدود الأحكام الشكلية والانطباعات السطحية، ليغوص في أعماق التجربة الإبداعية، كاشفًا عن القوى النفسية الكامنة وراء العمل الأدبي، ومبرزًا ما يحمله النص من دلالات شعورية وإنسانية تعبّر عن تفاعل المبدع مع ذاته ومجتمعه.